

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ عَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258)

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا:

تتجلى مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا، فِي كَوْنِهَا مِثَالًا نَاصِعًا كَاشِفًا لَتَوَلَّى اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَايَةِ الطَّاغُوتِ لِعِبَادِهِ الْكَافِرِينَ، فَإِبْرَاهِيمُ   هُوَ مِثَالُ مَنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَنُمرُودُ هُوَ مِثَالُ مَنْ تَوَلَّاهُ الطَّاغُوتُ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ.

وَبِرَاعَةُ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَنَّهَا أَتَتْ بِشَخْصِيَّةٍ يَعْتَزُّ بِهَا الْمُشْرِكُونَ؛ لَتَكُونَ حُجَّةً ظَاهِرَةً عَلَيْهِمْ، فِي إِثْبَاتِ الْبَعْثِ ضَمَنًا، وَتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ صِرَاحَةً، وَفِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَصِيرَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُبْهَتُوا كَمَا بُهِتَ هَذَا الظَّالِمُ، وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِ الْمُنَاسَبَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بِتَوْظِيفِ الْمَثَلِ الْقُرْآنِيِّ؛ لِيَكُونَ دَلِيلًا وَبُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ آدِلَةِ الْقُرْآنِ النَّظَرِيَّةِ، فَوَقَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَوْقِعَ التَّمَثِيلِ مِنَ التَّنْظِيرِ.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿حَاجَّ﴾: الْمَحَاجَّةُ: إِظْهَارُ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ بِقُوَّةٍ وَاقْتِدَارٍ مَعَ الْخَصْمِ، وَالْحُجَّةُ: الْبُرْهَانُ الْمُصَدِّقُ لِلدَّعْوَى، وَجَمَعُهَا: حُجَجٌ، وَفِعْلُ ﴿حَاجَّ﴾ جَاءَ عَلَى زِنَةِ الْمُفَاعَلَةِ، وَالْفِعْلُ حَاجَجْتُهُ فَحَجَجْتُهُ، وَاحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ، وَالْمَحَاجَّةُ: الْمَقَاوِمَةُ فِي إِظْهَارِ الْحُجَّةِ، وَالْمَحَجَّةُ: قَارِعَةُ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، وَهُوَ أَصْلُ الْحُجَّةِ؛ لِأَنَّهُ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، وَالْحُجَّةُ: الدَّلَالَةُ الْمُبَيِّنَةُ لِلْمَحَجَّةِ، أَيِ: الْمَقْصَدِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يَقْتَضِي صِحَّةَ أَحَدِ النَّقِضَيْنِ (1).

(1) (الخليل، العين، وابن فارس، للقايس: (حجج)، والراغب، تفسير الراغب: 1/536، والمفردات، ص: 219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

وَلَمْ تَسْعَمَلِ الْحُجَّةَ وَمُسْتَقَاتُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا فِي حَقْلِ الْعَقِيدَةِ، سَوَاءٌ فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258]، أَمْ أَهْلَ الْكِتَابِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: 65].

(2) ﴿فَبُهِتَ﴾: الْبُهْتُ: انْقِطَاعُ عَنِ الْكَلَامِ أَوْ الْفِعْلُ مَعَ حَيْرَةٍ لَسَبَبٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ، وَأَصْلُهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: بُهِتَ الْفَحْلُ عَنِ النَّاقَةِ، أَي: نَحَاهُ لِيَحْمَلَ عَلَيْهَا فَحَلًّا أَكْرَمَ مِنْهُ، فَتَنْحِيَةُ الْفَحْلِ عَنِ النَّاقَةِ حِينَ إْتْيَانِهَا هُوَ قَطْعُ وَدَهْشَةٍ، تُؤَلَّدُ حَيْرَةً وَاضْطِرَابًا، فَعَلَى هَذَا مَدَارُ الْمَعْنَى.

وَيُطْلَقُ عَلَى فِعْلِكَ بِالْإِنْسَانِ مَا يُحَيِّرُهُ، وَسُمِّيَ الْكَذِبُ الْمُسْتَقْبَلُ بِهِ الْإِنْسَانُ بُهْتَانًا؛ لِتَحْيِيرِ صَاحِبِهِ فِيهِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُوَاجَهَةً بِمَا لَمْ يَقُلْ، وَيُقَالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ فَهُوَ مَبْهُوتٌ، إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ (1).

وَاسْتَعْمَلَ الْبُهْتُ فِي الْقُرْآنِ فِي الْأُمُورِ الْكُبْرَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: 40].

وَمِثْلُهُ الْبُهْتَانُ، وَهُوَ الْبَاطِلُ وَالْكَذِبُ الَّذِي يُتَحَيَّرُ مِنْهُ؛ لَشِدَّةِ وَقْعِهِ وَعَدَمِ تَوَقُّعِهِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: 156]، وَقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْبُهْتَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِيمَا كَانَ أَثَرُهُ عَظِيمًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ وَالْأُسْرَةِ، وَهُوَ مَا يَسْتَرْعِي انْتِبَاهَ الْمُتَدَبِّرِ إِلَى أَنَّ شَرَّ الْبُهْتَانِ يَعْصِي وَلَا يَخْصُصُ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

تُبَيِّنُ الْآيَةُ طَرِيقَةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمُحَاجَّةِ بِمِثَالِ تَطْبِيقِيٍّ - مِنْ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ الرَّجُلِ الْجَبَّارِ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ - فِي إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ بَيَانِ أَنَّهُ لَا قَادِرَ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِذْ أَخْبَرَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي وَيَمِيتُ،

(1) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 94، وابن دريد، جمهرة اللغة: (بهت)، وغلان ثعلب، ياقوتة الصراط، ص: 181، والأزهري، تهذيب اللغة: (بهت)، والهروي، الغريبين: 1/225، وابن سيده، للخصص: (بهت)، والراغب، للفردات، ص: 148، والراغب، تفسير الراغب: 1/536.

إثبات عقيدة
التَّوْحِيدِ
والبَّعْثِ،
بأسلوبٍ
ججاجيٍّ مُنْقَطِعٍ
النَّظِيرِ

مستدلاً بذلك على وجود الرب تعالى، فردَّ عليه الملك - عناداً - بأنه أيضاً يملك أن يفعل هذا الفعل؛ فالإحياء - عنده - استبقاء من أراد قتله، والإماتة قتل من أراد إماتته، فردَّ عليه إبراهيم عليه السلام بحجة قاطعة بأن الله يأتي بالشمس كلَّ يوم من جهة المشرق، فإن كان إلهاً حقاً، يحيي ويميت، فليجعلها تطلع من جهة المغرب، فعلم هذا المحاجج أنه انقطع عن الحُجَّة، فتحرَّرَ واندَهَشَ، والله تعالى لا يوفق من ظلم نفسه بإيثاره الكفر على الإيمان.

ففي الآية إثبات عقيدة التَّوْحِيدِ والبَّعْثِ، بأسلوبٍ ججاجيٍّ مُنْقَطِعٍ النَّظِيرِ؛ لإقامة الحُجَّةِ على مَنْ يَزَعُمُ انتِسَابَهُ إلى إبراهيم عليه السلام، وبيان ضلال الظالمين في ظلمات الجهل والضَّياع.

❁ الإيضاح اللغويّ والبلاغيّ:

بلاغة الأسلوب التركيبيّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾:

ابتدأت الآية بتركيبٍ بدعيٍّ كثر استعماله في القرآن الكريم استعمال الأمثال⁽¹⁾، وهو ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾، واستعمل في مخاطبة مَنْ لَمْ يَرَوْا وَلَمْ يَسْمَعُوا؛ لَأَنَّهُ جَرَى مَجْرَى المَثَلِ في مَعْنَى التَّعْجِيبِ. قال الزجاج: "هذه كلمة يُوقَفُ بها المخاطبُ على أمرٍ يعجب منه، ولفظها لفظ استفهام، تقول في الكلام: ألم تر إلى فلان صنع كذا وصنع كذا"⁽²⁾، ومضمون هذا التركيب "إثارة الاهتمام والتقرير، وتثبيت المعنى في نفس القارئ والسامع"⁽³⁾. و الحثُّ والتَّحْريضُ على العِناية بالمذكور بعده ممَّا لَمْ يَرَهُ الْمُخاطَبُ عِيَانًا، تَنْزِيلًا لِمَنْ لَمْ يَرَوْا وَلَمْ يَسْمَعُوا مَنْزِلَةً مَنْ رَأَى وَسَمِعَ، زِيَادَةً فِي التَّأْكِيدِ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ؛ لِمَا يَحْتَوِيهِ مِنْ غَرَابَةٍ

جَرَى هَذَا
التَّرْكِيبُ مَجْرَى
الْأَمْثَالِ لِلْخَصِّ
عَلَى الْعِلْمِ،
و التَّأْكِيدِ عَلَى
أَهْمِيَّتِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883.

وَتَعْجَبُ. قال الطيبي: "وأما معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ففيه تنبيه للمخاطب على التعجب فيما يشاهده"⁽¹⁾.

قال أبو حيان: "وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ دليل على الاختصاص؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا، دل على الاختصاص، فتقول: زيد الذي يصنع كذا، أي: المختص بالصنع"⁽²⁾. وفيه إلماح بكونه مختصاً بالمحاجة.

وفي التركيب
دلالة
الاختصاص

تنوع معاني
همزة الاستفهام
تعجباً وتقريراً
وإنكاراً

لهَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ مِنَ الْمَعَانِي:
الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلاً فِي التَّعْجُبِ أَوِ التَّعْجِيبِ
مِنْ عَدَمِ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِمَفْعُولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، وَيَكُونُ فِعْلُ الرُّؤْيَةِ عِلْمِيًّا
مِنْ أَخَوَاتِ ظَنٍّ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرِيًّا، إِذَا نَأَى بِأَنَّ الْقِصَّةَ
مِنْ الشُّهُرَةِ بِحَيْثُ يَحِقُّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِرُؤْيَيْهَا، وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ رَأَاهَا أَوْ سَمِعَ بِهَا.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ الاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيًّا؛ لِعَدَمِ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ
بِمَفْعُولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، وَذَلِكَ لِإِيلَاءِ حَرْفِ النَّفْيِ هَمْزَةَ الاسْتِفْهَامِ،
فَالِاسْتِنْكَارُ وَاقْعٌ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً⁽³⁾.

وَهَذِهِ الْأَوْجُهُ الثَّلَاثَةُ مُرَادَةٌ وَصَحِيحَةٌ فِي ذَاتِهَا، فَهَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ
لِلْإِنْكَارِ النَّفْيِ وَتَقْرِيرِ الْمَنْفِي، وَمَقْصُودُهَا التَّعْجِيبُ مِمَّنْ هَذِهِ حَالُهُ،
وَهَذَا مِنْ بَلِيغِ اسْتِعْمَالِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ لِلِاسْتِفْهَامِ.

بِنَاءً عَلَى الْأَوْجُهُ الثَّلَاثَةِ، لَا بُدَّ مِنْ تَضْمِينِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ الْمُتَعَدِّي
بِحَرْفٍ إِلَى مَعْنَى النَّظَرِ فِي الْأَوْجُهُ الثَّلَاثَةِ؛ لِيَحْصَلَ الْإِدْعَاءُ بِأَنَّ

تضمين فعل
الرؤية معنى
النظر والوصول

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/503

(2) أبو حيان، البحر المحیط: 2/299

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/476-477.

هَذَا الْأَمْرُ الْمُدْرَكُ بِالْعَقْلِ كَأَنَّهُ مُدْرَكٌ بِالنَّظَرِ؛ لَكَوْنِهِ بَيْنَ الصَّدَقِ لِمَنْ عِلْمُهُ، أَوْ مَعْنَى الْوُصُولِ وَالْإِنْتِهَاءِ، عَلَى مَعْنَى: أَلَمْ يَنْتَهَ عِلْمُكَ إِلَيْهِمْ⁽¹⁾؟! وَالْمَقْصُودُ هُوَ أَنَّ يَعْْلَمَ الْمُخَاطَبُ ذَلِكَ الْأَمْرَ عِلْمًا يَقْبِينِيًا كَأَنَّهُ مُشَاهَدٌ أَمَامَهُ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ التَّضْمِينِ⁽²⁾.

اِسْتَفِيدَ التَّحْرِيزُ عَلَى الْأَوْجِهِ الثَّلَاثَةِ مِنْ طَرِيقِ الْكِنَايَةِ بِلَا زِمٍ مَعْنَى الْإِسْتِفْهَامِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْأَمْرِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ، أَوْ الْمُقَرَّرِ بِهِ، أَوْ الْمُنْكَوَرِ عِلْمُهُ، أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ أَنْ تَتَوَفَّرَ الدَّوَاعِي عَلَى عِلْمِهِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْتَ وَيُحَرِّضُ عَلَى عِلْمِهِ⁽³⁾.

التَّحْرِيزُ مَعْنَى
كِنَايَتِيٍّ، إِذْ إِنَّهُ
لَا زِمَ الْإِسْتِفْهَامِ

بلاغة الاستعارة في التركيب:

قال الراغب: "أصل تعدية الفعل (رأيت) بنفسه دون الجار، لكن لما استعير قولهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لمعنى: (ألم تنظر) عدى تعديته، وفائدة استعارته أن النظر قد يتعرى عن الرؤية، فإذا أريد الحث على نظر ناتج لا محالة للرؤية استعيرت له، وقُلَّ ما استعمل ذلك في غير التقرير"⁽⁴⁾.

إِنَّ النِّظَرَ قَدْ
يَتَعَرَّى عَنِ
الرُّؤْيَا، وَفِي
الِاسْتِعَارَةِ حَثٌّ
عَلَى نَظَرٍ نَاتِجٍ
لِلرُّؤْيَا

بدیع التعبير بالحيدة، والانتقال:

تدرج الآية المباركة ضمن فن (الحيدة، والانتقال)⁽⁵⁾، فقد علم نبي الله ابراهيم عليه السلام أَنَّ المحاجج لم يفهم معنى (الإحياء والإماتة)، فانقلع عليه إلى استدلال لا يجد له وجهًا يتخلص منه، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ لينقطع، وينتهي الجدل بقوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾⁽⁶⁾.

هُوَ انْتِقَالٌ إِلَى
اسْتِدْلَالٍ لَا يَجِدُ
فِيهِ الْمَحَاجِّجَ
وَجْهًا يَتَخَلَّصُ
مِنْهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 477-476/2

(2) الفونوي، حاشية القونوي: 4/164، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/290، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.

(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/499 (بتصرف يسير).

(5) الحيدة، والانتقال: هو أن يجب المسؤول بجواب لا يصلح أن يكون جواباً عما سئل عنه، أو ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه ويكون هذا الضرب من البلاغة إذا أتى به المستدل بعد معارضته بما يدل على أنَّ المعارض لم يفهم وجه استدلاله. ينظر:

الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

اختيار الألفاظ
قائم على
اعتبار المقاصد
والمضامين
والخواتيم

براعة التعبير بالمُحاجة دون المُجادلة:

لسائلٍ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سِرِّ اخْتِيَارِ كَلِمَةِ ﴿حَاجَّ﴾ دُونَ (جَادَلَ)، مَعَ أَنَّ الْمَقَامَ فِي الظَّاهِرِ أَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا مِنْهُ مُحَاجَّةً، وَقَدْ أُسْنَدَ فِعْلُ ﴿حَاجَّ﴾ إِلَى الْمُخَاصِمِ فِي رَبِّهِ، وَيَرْجِعُ سَبَبُ ذَلِكَ إِلَى الْأُمُورِ الْآتِيَةِ: الْأَوَّلُ: الَّذِي ابْتَدَأَ الْكَلَامَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ مَا ابْتَدَأَهُ حِجَاجًا.

الثَّانِي: نُظِمَتِ الْقِصَّةُ عَلَى أُسْلُوبِ الْإِجْمَالِ وَالِإِيجَازِ، فَنَاسَبَ وَصْفُهَا بِالْمُحَاجَّةِ.

الثَّلَاثُ: انْتَهَتْ الْمُحَاجَّةُ فِي انْقِطَاعِ الْمُخَاصِمِ الْكَافِرِ وَتَحْيِيرِهِ، فَظَهَرَتِ الْحُجَّةُ لِلْمُحَقِّقِ، وَهَذَا حِجَاجٌ لَا جِدَالَ، إِذِ الْعِبْرَةُ بِالنِّهَايَاتِ، وَمَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَاتِهِ أَشْرَقَتْ نِهَايَاتُهُ.

الرَّابِعُ: اخْتَصَّ وَصَفُ مُحَاوَرَاتِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي الْقُرْآنِ بِالْحِجَاجِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83]، فَانْتَلَفَتِ الْأَلْفَاظُ وَتَجَانَسَتْ.

الخَامِسُ: شَابَهَتِ الْقِصَّةُ مَا كَانَ مِنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي مُحَاجَّتِهِمْ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: 80]، فُبْنِيَ نَظْمُ الْآيَتَيْنِ عَلَى إِغْفَالِ كَلَامِ الْخُصُومِ، وَالْعِنَايَةِ بِالْحُجَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ، فَحُسِّنَ أَنْ يَتَجَاوَبَ النَّظْمُ، أُسْلُوبًا وَلَفْظًا.

بلغة (الإستخدام) في الآية⁽¹⁾:

يُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي ﴿رَبِّهِ﴾، إِمَّا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَتَكُونُ الْإِضَافَةُ حِينَئِذٍ لِتَشْرِيفِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا إِلَى الْإِسْمِ الْمَوْصُولِ،

(1) الاستخدام: "إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميرًا تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه -إن شئت- ضميرين، تريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالأخر المعنى الآخر." ابن حجة، خزنة الأدب وغاية الأرب: 1/119.

وجه
(الإستخدام)
بيان معنيين
متناقضين،
تشريفًا
لأحدهما،
وتشنيعًا على
الأخر

وَتَكُونُ الْإِضَافَةُ لِإِظْهَارِ غَلَطِ الْمُخَاصِمِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ؛ لَأَنَّهُ يُخَاصِمُهُ فِي رَبِّهِ⁽¹⁾، وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ "الِاسْتِخْدَامِ" فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ، فِي اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ؛ لَصِحَّةِ ذَلِكَ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَقَدْ صَحَّ هُنَا عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْاِثْنَيْنِ، تَشْرِيفًا لِأَحَدِهِمَا وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ؛ لَأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ، وَتَشْنِيعًا عَلَى الْآخِرِ لِأَنَّ اللَّهَ آتَاهُ الْمُلْكَ، وَهَذَا مِنْ بِلَاغَةِ النُّظْمِ الْكَرِيمِ، وَقُوَّةِ سَبْكِهِ، حَيْثُ تَقْرَأُ الْآيَةَ عَلَى الْإِحْتِمَالَيْنِ فَتَجِدُهَا مُتَّسِقَةً مُنْسَابَةً.

التَّعَرُّضُ لِعُنْوَانِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْأُلُوهِيَّةِ:

جَرَى إِيثَارُ عُنْوَانِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ دُونَ الْأُلُوهِيَّةِ، لِيَتَّسِعَ الْإِحْتِمَالُ فِي عَوْدَةِ الضَّمِيرِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَإِلَى الْمَقْصُودِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ، فَإِنَّ اللَّهَ رَبُّ الْاِثْنَيْنِ، وَالْمُنَازَعَةُ كَانَتْ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وَفِي قَوْلِ الْمَافُونِ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ إِظْهَارَ عُنْوَانِ الرُّبُوبِيَّةِ، لِبَيَانِ أَنَّ مَدَارَ النَّزَاعِ عَلَيْهَا.

إِيثَارُ لَفْظِ الرَّبِّ
لِيَتَّسِعَ الْإِحْتِمَالُ
فِي عَوْدَةِ الضَّمِيرِ
إِلَى ذَاتَيْنِ، وَبَيَانُ
أَنَّ الْمُنَازَعَةَ فِي
الرُّبُوبِيَّةِ

بَيَانُ إِيثَارِ الْإِظْهَارِ عَلَى الْإِضْمَارِ:

أَظْهَرَتِ الْآيَةُ لَفْظَ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، تَرْبِيَةً لِلْمَهَابَةِ فِي قُلُوبِ الْمُخَاطَبِينَ، وَلِبَيَانِ عَظِيمِ الْاجْتِرَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ إِظْهَارَ الْإِسْمِ الْكَرِيمِ لَيْسَ كِإِضْمَارِهِ، وَهَذَا مَا يَكْشِفُ جَمَالَ ذِكْرِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ، فذِكْرُهُ جَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِنَانِ، الْمُتَضَمِّنِ بَيَانَ كُنُودِ الْكَافِرِ الْمُخَاصِمِ، فَكَانَ ذِكْرُ الرُّبُوبِيَّةِ تَوَطُّعًا مَوْصِلَةً لِبَيَانِ غُلُوِّ الْجُحُودِ، وَهِيَ كَذَلِكَ "إِيذَانٌ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ بِتَأْيِيدِ وَلِيِّهِ لَهُ فِي الْمُحَاجَّةِ؛ فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ نَوْعٌ مِنَ الْوِلَايَةِ"⁽²⁾.

فِي الْإِظْهَارِ
بَيَانٌ لِكُنُودِ
الْكَافِرِ، وَشِدَّةِ
خُصُومَتِهِ،
وَإِيذَانٌ بِتَأْيِيدِ
الْوَلِيِّ

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

(2) الألوسي، روح المعاني: 2/16.

في الإظهارِ رفعةً
لشأن نبيه ﷺ،
وحطاً لشأن الذي
حاجّه

كشف التهكم
رُسوخ الكُفر في
قَلْب المُخاصِم،
إذ وَضَعَ الكُفْرَ
مَوْضِعَ الشُّكْرِ

وفي جملة
التعليل وجه
استعارة تبعية
داعيها التهكم

التعبير بالجملة
الإسميّة ثبوت
إيجاده تعالى
للكافر وإحيائه
وإماتته

طوى ذكر ابراهيم ﷺ في موضعين للتنويه برفعة شأنه، واحتقار
الذي حاجّه والحق من قدره⁽¹⁾.

بلاغة التهكم:

مَكَمَّنَ النَّعْجِبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ هو علة الحاجة، وهي إيتاء الله الملك
للمُخاصِم، أي: الآن آتاه الله الملك يُخاصِمُ وَيُشَاغِبُ! ففي الآية
تَهْكُمُ بليغ، يكشف عن رُسوخ الكُفر في قلبه، وضْعاً للمُحاجة التي
هي أَقْبَحُ وجوه الكُفر مَوْضِعَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ⁽²⁾، كما في
قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: 82].

قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ تعليل حذفت
منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمنه ﴿حَاجَّ﴾ من الإقدام على
هذا الغلط العظيم الذي سَهَّلَهُ عنده ازدهاؤه وإعجابه بنفسه، فهو
تعليل محض وليس علة غائية مقصودة للمُحاج من حجاجه. وجَوَزَ
صاحب الكشف أن يكون تعليلًا غائيًا أي حاج لأجل أن الله آتاه
الملك، فاللام استعارة تبعية لمعنى يؤدي بحرف غير اللام، والداعي
لهاته الاستعارة التهكم، أي أنه وضع الكفر موضع الشكر كما في
أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾
[الواقعة: 82]، أي جزاء رزقكم"⁽³⁾.

بلاغة التعبير بالجملة الإسميّة:

وجاء بقوله: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، مبتدأً وخبرًا؛ للدلالة
على ثبوت إيجاده هو تعالى للكافر وإحيائه، وإماتته: "كأنه قال: ربي
الذي يحيي ويميت هو متصرف فيك وفي أشباهك بما لا تقدر عليه

(1) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251، والألوسي، روح المعاني: 2/16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

أنت ولا أشباهك من هذين الوصفين العظميين المشاهدين للعالم
للذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء ولا طب الأطباء، وفيه إشارة
أيضاً إلى المبدأ والمعاد⁽¹⁾.

دلالة تضمين الجملة الاسمية بالفعلين المضارعين:

وضمن الجملة الاسمية الدالة على ثبوت إيجاده تعالى للكافر
الفعلين المضارعين ﴿يُحْيِي﴾، و﴿يُمِيتُ﴾ للدلالة على التجدد
والاستمرار، لإفادة أن هذا شأنه دائماً كما هو معهود معروف لمن
نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل⁽²⁾.

فائدة الإخبار بالإسم الموصول:

جاء ذكر صفة الإحياء والإماتة صلة للموصول: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّیَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ولم يأتِ خبراً مباشراً، فلم يقل: (رَبِّي
يُحْيِي وَيُمِيتُ)، ذلك أن الإخبار بالإسم الموصول أقوى من الإخبار
بالجملة الفعلية؛ لإفادته الاختصاص، والتعريض، فكأنه قال: رَبِّي
هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ دون سواه، ولو قال: رَبِّي يُحْيِي وَيُمِيتُ، لأفاد
مجرد الإخبار، ولا معنى له في سياق الحجاج، إذ المقصود إثباتهما
لله تعالى اختصاصاً، ونفيهما عن سواه تعريضاً. ولذلك عدل عن
التعبير بالموصول (مَنْ) التي فيها الإبهام إلى ﴿الَّذِي﴾ الدال على
المعهود المعروف، للتخصيص والتعبير عن معهود شأنه⁽³⁾.

بلاغة المجاز في جملة (إيتاء الملك):

وإيتاء الملك في قوله تعالى: ﴿أَنْ عَائِلَهُ اللَّهُ أَلَمَلِكُ﴾ مجاز في
التفضل عليه بتقدير أن جعله ملكاً وخوّله ذلك⁽⁴⁾.

أفاد المضارعان
أن الإحياء،
والإماتة هما
شأنه المعهود
دائماً

إفادة
الاختصاص،
إثباتاً لله تعالى،
ونفياً عن
سواه، بقصد
التعريض

بيان المجاز إظهار
وجه التفضل
بإيتاء الملك

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.

(2) رضا، تفسير النار: 3/39.

(3) رضا، تفسير النار: 3/39.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

توجيه المعارضة بالتعبير: ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾:

توجيه جملة
للمعارضة
المشاركة في
الاختصاص

قال أبو حيان: "لما ذكر إبراهيم أن ربه الذي يحيي ويميت عارضه الكافر بأنه يحيي ويميت بقوله ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾، ولم يقل: (أنا الذي يحيي ويميت)؛ لأنه كان يدلّ على الاختصاص، وكان الحسّ يكذّبه؛ إذ قد حيي ناسٌ قبل وجوده وماتوا، وإنما أراد أن هذا الوصف الذي ادّعت فيه الاختصاص لربك ليس كذلك، بل أنا مشاركٌ في ذلك" (1).

بيان مقصود الاختصاص:

استدراج
الخصم للدليل
القاطع، وإقامة
الحجة النيرة،
والبرهان
الساطع

إرادة الاختصاص في كلامه ﷺ، يدلّ على المعية العالية، وحذق رفيع، ذلك أن بوادر ادعاء القدرة على الإحياء والإماتة لدى المخاصم الفاجر، غير خفية عنه، فبادره ﷺ بجملة الاختصاص ليستدرجه فيوقعه في شرك زعمه الباطل، وهذا ما حصل حين ردّ قائلًا: ﴿أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ﴾، فكرر عليه حينئذٍ بطلب الإتيان بالشمس من المغرب، فوقع مبهوتًا مقطوعًا عن الجواب، متحيرًا في الرد! فكان الإخبار باختصاصه سبحانه بالإحياء والإماتة استدراجًا ومقدمةً للدليل القاطع، وعليه إبراهيم ﷺ لم ينقطع في الحجاج - كما توهم - بل قطع، هذا ما يفيد تدبر قصد الاختصاص.

نكتة تقديم الإحياء على الإماتة في قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾:

إقامة الحجة
النفسية، توطئة
للقبول والإذعان

تقديم الإحياء على الإماتة امتنان وتزغيب وتذكير بما كان عليه المخاصم قبل ولادته، وهذا من لطيف الحجاج والاستمالة، ولوعكس لفهم الترهيب والتهديد، فقامت الحجة النفسية على الخصم ابتداءً، مسورةً بالحجة العقلية، توطئةً للقبول والإذعان، وبه تلتقي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.

مَحَاسِنُ الْمَقَاصِدِ النَّفْسِيَّةِ الْهَدَائِيَّةِ، وَالْمَقَاصِدِ الْعَقْلِيَّةِ الْإِفْنَاعِيَّةِ فِي الْحِجَاجِ النَّبَوِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

عَلَّةُ فَضْلِ الْجُمَلِ فِي الْمَحَاوِرَاتِ:

فُصِّلَتْ جُمْلَةٌ ﴿قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِيتٌ﴾، وَجُمْلَةٌ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ لِأَنَّهَا اسْتِنَافُ بَيَانِيٍّ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَحَاوِرَاتِ فِي الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ⁽¹⁾. وَبَلَاغَتُهَا تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ، وَإِقْطَاطُ حِسِّ الْيَقْظَةِ فِي ذَهْنِهِ، كَيْ يَبْقَى مُتَشَوِّقًا لِمَا سَيَقَالُ، وَالْإِنْتِقَالُ فِي جُمْلَةٍ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ إِمَّا مِنْ دَلِيلٍ إِلَى آخَرٍ أَشَدَّ وُضُوحًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تِمَّةً لِلدَّلِيلِ الْأَوَّلِ.

لَمَّا وَصَفَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ رَبَّهُ بِمَا يَنْصِفُ بِهِ مِنْ صِفَتِي الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَرَعَ نَمْرُودَ إِلَى الْمَجَازِ وَمَوَّهَ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ، فَسَلَّمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ تَسْلِيمَ الْجَدَلِ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ مِنْ أَمْرٍ يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ، إِلَى أَمْرٍ لَا مَجَازَ فِيهِ، فُبْهَتَ الَّذِي كَفَرَ⁽²⁾.

بَلَاغَةُ الْفَاءِ الْفَصِيحَةِ فِي الْحِجَاجِ الْقُرْآنِيِّ:

الْفَاءُ الْوَاقِعَةُ فِي كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ هِيَ الْفَصِيحَةُ، وَهِيَ الَّتِي تُفَصِّحُ عَنْ مُقَدَّرٍ مَحْذُوفٍ، وَتَقَعُ فِي الْغَالِبِ جَوَابًا لَشَرْطٍ مُقَدَّرٍ، وَمَعْنَاهَا فِي الْآيَةِ: إِنَّ كُنْتَ قَادِرًا أَيُّهَا الْمُخَاصِمُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي زَعْمِكَ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَتَجِدُ أَنَّ الْفَاءَ الْفَصِيحَةَ تَكَرَّرَ مَجِئُهَا فِي هَذَا السِّيَاقِ مَرَّتَيْنِ، لِحُسْنِ تَقْدِيرِ الْمَحْذُوفِ فِي بَابِ الْحِجَاجِ، وَتَرْمُزُ إِلَى ضَرُورَةِ الْحَذَرِ أَثْنَاءَ مُحَاجَّةِ الْبَاطِشِينَ، وَتَكْمُنُ بَلَاغَتُهَا فِي وَظِيفَتِهَا الْإِخْتِزَالِيَّةِ.

عَلَّةُ الْفَضْلِ
تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ،
وإِقْطَاطُ حِسِّ
الْيَقْظَةِ فِي
ذَهْنِهِ، كَيْ يَبْقَى
مُتَشَوِّقًا لِمَا
سَيَقَالُ

لَطِيفَةُ بَيَانِيَّةٍ
فِي الْهُرُوبِ مِنْ
الْحَقِيقَةِ إِلَى
الْمَجَازِ

تَرْمُزُ الْفَاءُ
الْفَصِيحَةُ إِلَى
ضَرُورَةِ الْحَذَرِ
أَثْنَاءَ مُحَاجَّةِ
الْبَاطِشِينَ،
وَتَكْمُنُ بَلَاغَتُهَا
فِي وَظِيفَتِهَا
الْإِخْتِزَالِيَّةِ

(1) أشار ابن عاشور إلى هذا التوجيه في أكثر من موضع في تفسيره التحرير والتنوير: 8/190.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/346.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/958.

سرّ توكيد الخبر:

توكيد الخبر
يناسب شدة
الإنكار

أكد جملة الخبر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ بـ (إِنَّ) لأن المخاطب منكراً، شديد الإنكار بالله تعالى، مدافع عن إنكاره، محتجّ له⁽¹⁾.

اختيار لفظ الربوبية، ولفظ الجلالة في الموضع الأنسب بالمقام:

التعريف بالله
رب العالمين،
وأنه لا رب
سواه، مهابة
وجلالة وتسلية

جاء بلفظ الربوبية في قوله تعالى: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، في حين جاء بلفظ الجلالة في قول تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، وهذا التنوع ليس تفنُّناً، بل هو ما تقتضيه البلاغة، ويسنده جمال المعنى، فإن المأفون خاصم في كونه رباً قادراً على الإحياء والإماتة، فذكر له لفظ الربوبية فيما يدعيه، وذكر لفظ الجلالة فيما لا يقوى عليه، تعريفاً للناس بالله رب العالمين، وأنه لا رب قادراً سواه، وليكون لفظ الجلالة الاسم الذي يثبت المهابة في الصدور، ويرسم الابتسامة عند قراءته في السطور، وهو ما كان. وأفاد الألوسي بأن اختيار الاسم الكريم جاء ليقابل ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ ففيه ترق كالترقى من الأرض إلى السماء⁽²⁾.

فنّ المقابلة⁽³⁾:

أفانين استعمال
الأداة البلاغية
(المقابلة)، في
إثبات العقائد
القرآنية
(البغث)

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، بديع المقابلة، فقابلت الآية بين الإحياء الذي هو دليل استمرار الحياة، وبين إتيان الشمس من مشرقها الذي هو دليل استمرار زمانها، وبين الإماتة التي هي دليل توقف الحياة، وبين إتيان الشمس من مغربها الذي هو دليل توقف زمانها، فقابلت بين الحياة الجزئية،

(1) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.

(2) الألوسي، روح المعاني: 2/20.

(3) المقابلة: "إيراد الكلام، ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافقة أو المخالفة". يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 337.

والْحَيَاةِ الْكُلِّيَّةِ، وَبَيَّنَ الْإِمَامَةَ الْجَزَائِيَّةَ وَالْإِمَامَةَ الْكُلِّيَّةَ، وَهَذَا التَّقَابُلُ خَفِيَ بَدِيعٌ، وَنَكَتَهُ الدَّلَالَةُ عَلَى الْبَعْثِ، فَإِنَّ مَوْتَ الْجَزَائِي يَنْتَهِي بِمَوْتِ الْكُلِّي، وَإِتْيَانُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا (الْمَوْتُ الْكُلِّي) دَلِيلُ الْبَعْثِ، فَإِذَا وَقَعَ قَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَدَلَّتْ بِلَاغَةُ الْمُقَابَلَةِ عَلَى الْبَعْثِ. وَهَذَا مِنْ أَفَانِينَ اسْتِعْمَالِ الْأَدَاةِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي إِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ الْقُرْآنِيَّةِ.

أثر اختيار لفظ البهت في تصوير المشهد القرآني:

اخْتَارَتِ الْآيَةُ لَفْظَ الْبَهْتِ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ؛ كَالدَّهْشِ، أَوْ التَّحِيرِ، أَوْ الْإِنْقِطَاعِ، لَمَعْنَى دَقِيقٍ لَا يُؤَدِّيهِ سِوَى هَذَا اللَّفْظِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْمُخَاصِمَ جَمَعَ بَيْنَ خَسِيسَتَيْنِ وَهُمَا: إِنْكَارُ الْبَعْثِ، وَادِّعَاءُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَآتَى لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ بِدَلِيلٍ يَقْطَعُ بِهِ أَبْهَرَ فِكْرِهِ، وَوَتِينَ مَكْرِهِ، وَهُوَ أَنَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، اعْتَرَفَ ضَمْنًا بِالْبَعْثِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ مُعْتَقَدِهِ؛ لِأَنَّهُ يَدَّعِي خُلُودَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِالتَّالِي إِنْكَارَ الْبَعْثِ، وَإِنْ اعْتَرَفَ بِعَجْزِهِ أَقَرَّ بِمَرْبُوبِيَّتِهِ لِلخَالِقِ الْقَادِرِ، فَكَانَ الْإِنْقِطَاعُ دَلِيلَ الْعَجْزِ وَالنَّسْلِيمِ، وَلَا يُصَوِّرُ هَذَا الْمَشْهَدَ الَّذِي يَجْمَعُ الْحَيْرَةَ الْفِكْرِيَّةَ، وَالْدَّهْشَةَ النَّفْسِيَّةَ، وَالْإِنْقِطَاعَ الْجَدَلِيَّ، إِلَّا لَفْظُ الْبَهْتِ؛ لِأَنَّهُ الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْمَعَانِي جَمِيعُهَا. وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ أَسْرَارِ اسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ.

ارتباط الفاصلة بمضمون الآية:

ارْتَبَطَتِ الْفَاصِلَةُ بِمَضْمُونِ الْآيَةِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، فَإِنَّ الْهِدَايَةَ هُنَا هِيَ هِدَايَةُ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ لِلطَّرِيقِ الْقَوِيمِ⁽¹⁾، فَلَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، أَرَدَفَ بِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، لِأَنَّ الْمَبْهُوتَ انْكَشَفَ عَوْرُهُ، وَبَانَتْ حَيْرَتُهُ، وَتَجَلَّى ضَيَاعُهُ، فَنَاسَبَ هَذِهِ الْمَعَانِي نَفْيُ الْهِدَايَةِ عَنْ صَاحِبِهَا، فَجُمِعَ لَهُ وَصَفَانِ: الْكُفْرُ وَالظُّلْمُ، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، وَذَكَرَ الظُّلْمَ لِبَيَانِ

تصوير الحيرة
الفكرية،
والدهشة
النفسية،
والإنقطاع
الجدلي، في
مشهد غيبي
عجيب

بيان علة الكفر،
وسبب الضلال،
تحذيرًا وتنبيهًا

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/347.

أَنَّهُ عَلَّةُ الْكُفْرِ وَسَبَبُهُ الرَّئِيسُ، فَمَنْ تَجَرَّدَ مِنْهُ، فَقَدْ شَقَّ طَرِيقَ الْهِدَايَةِ، وَلَمْ يَبْقَ لِمُحْتَجِّ حُجَّةٌ، وَلَا لِمُخَاصِمٍ دَلِيلٌ.

جملة التذييل
تقريراً لمضمون
ما قبلها

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ "تذييل مقرر لمضمون ما قبله، أي: لا يهدي الذين ظلّموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلّد بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة"⁽¹⁾.

❁ الفُرُوقُ الْمُغْجَمَةُ:

المُحَاجَّةُ وَالْجِدَالُ وَالْمُحَاوَرَةُ⁽²⁾:

المُحَاجَّةُ: إِظْهَارُ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ بِقُوَّةٍ وَاقْتِدَارٍ مَعَ الْخَصْمِ فِي الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى، بِنَتَبِيتِ الْقَصْدِ وَالرَّأْيِ بِالْأَدْلِيلِ الْمَتِينِ، وَالْبَرْهَانِ الْوَاضِحِ.

"والْحُجَّةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَا يَقْصَدُ بِهِ إِثْبَاتُ الْمَخَالَفِ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ مِنْهُ تَقْصِيًّا، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلَّذِي غَلَبَ مَخَالَفَهُ بِحُجَّتِهِ قَدْ حَجَّهَ، وَأَمَّا الْإِحْتِجَاجُ فَهُوَ إِتْيَانُ الْمُحْتَجِّ بِمَا يَظُنُّهُ حُجَّةً وَلَوْ مِغَالِطَةً، يُقَالُ: احْتَجَّ، وَيُقَالُ: حَاجَّ إِذَا أَتَى بِمَا يَظُنُّهُ حُجَّةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، فَالْحُجَّةُ لَا تَطْلُقُ حَقِيقَةً إِلَّا عَلَى الْبَرْهَانِ وَالْأَدْلِيلِ الْوَاضِحِ، وَأَمَّا إِطْلَاقُهَا عَلَى الشَّبْهِ فَمَجَازٌ؛ لِأَنَّهَا تُورَدُ فِي صُورَةِ الْحُجَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: 16]⁽³⁾."

الْجِدَالُ: تَعَارُضُ يَجْرِي بَيْنَ مُتَنَازِعَيْنِ فِصَاعِدًا، إِمَّا لِتَحْقِيقِ حَقٍّ، أَوْ تَغْلِيبِ ظَنٍّ، أَوْ إِبْطَالِ بَاطِلٍ، وَتَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ، وَأَصْلُهُ مِنْ: جَدَلْتُ الْحَبْلَ، أَيُّ: أَحْكَمْتُ قَتْلَهُ، وَالْغَالِبُ فِي اسْتِعْمَالِ الْجِدَالِ فِيمَا كَانَ خُصُومَةً بَيْنَ طَرَفَيْنِ، فَيَطْلُبُ كُلُّ مَنِهْمَا رُجُوعَ الْخَصْمِ عَنْ مَذْهَبِهِ.

وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْمُجَادَلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ، وَغَلَبَ عَلَى الْمُجَادَلَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 159-158، والراغب، المفردات، ص: 189 وص: 262، والسيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: 76، والناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 298، وص: 303، والزبيدي، تاج العروس: 11/108.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.

العناد، وقُوَّةُ المَعَارِضَةِ، ولذلك جاءَ الإرشادُ القرآنيُّ بَطَلَبِ تَخْفِيفِ ذَلِكَ لا مَنَعِهِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وقَوْلِهِ: ﴿*وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] .

المُحَاوَرَةُ: المُرَادَةُ في الكلام، وَمِنْهُ التَّحَاوُرُ، وَهُوَ مَا خُوِذَ مِنَ الرُّجُوعِ، وَيُدُلُّ عَلَى مُرَاجَعَةِ الكلامِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ قُوَّةِ الدَّلِيلِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34] .

وَمِنْ بَدِيعِ اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ مُصْطَلَحَ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ، مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، فَانْتَقَلَتْ تِلْكَ الْمُجَادَلَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جِدَالٍ عَنِيدٍ، إِلَى حِوَارٍ لَطِيفٍ، بِمَا أَفَاضَ عَلَيْهَا صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ لُطْفِ الْحِوَارِ وَالِاسْتِمَاعِ وَالتَّجَاوُبِ الْحَسَنِ، وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُهُ إِسْنَادُ الْمُجَادَلَةِ لَهَا ﴿تُجَدِّلُكَ﴾، وَإِشْرَاكَ التَّحَاوُرِ لهُمَا ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ اسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ فِي بِنَاءِ التَّرْبِيَةِ التَّوَاصُلِيَّةِ.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 4، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-55-2

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 4: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-55-2

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»